أثر النحو فى تقويم اللسان

الأديب محمد طه الحاجرى

قالوا ، فى رسم النحو رسماً غائياً : إنه علم تعصم مراعاته اللسان عن الخطأ فى الكلام ، ومضوا على هذا الاعتبار يضعون القواعد ، ويقيمون الحدود ، ويكدون الأذهان ، ويحملون على النشء فى ذلك ما لا يحتمل . فاذا رأوا أن التوفيق إلى الغاية النبيلة قد أخطأهم ، وأن السبيل التى رسموها قد بعدت بهم ، لم يلتمسوا طريقاً آخر يكون أهدى إلى الغاية ؛ فحسبهم أن ينثروا الطريق بالأزهار ، وأن يزحوا بعض ما فيه من الأحجار ، حتى تتبدل — فى زعمهم — طبيعته ، وتستقيم نحو الغاية محجته ، ويبلغوا بذلك ما أعجز الأجيال السالفة ... وهكذا جعلوا كل همهم من الاصلاح اللغوى أن يهذبوا قواعد النحاة وينسقوها ويحذفوا فضولها ... ليصلوا بذلك إلى عصمة اللسان ، وهيهات هيهات ! !

وأنا ما عرضت لأمر الصلة بين تعليم النحو وتقويم اللسان إلا اندفعت أمام ذهنى صورة صبى صغير لا يكاد يبلغ التاسعة ، وقد جلس على مقعده الصغير فى المدرسة ، وأمامه كراسة أكب عليها ، وجعل ينظر فى جُمل منسوقة كتبت فيها ؛ وكان المعلم قد طلب منه ومن رفاقه أن يضبطوا أواخرها ، امتحاناً فيما عُلِّموه ، وتثبيتاً لما قد عرفوه ، فأخذ ذلك الصبى يتحسس ما كان قد ألقى عليه ، ويحاول أن يضبطه فى ذهنه ، ويضبط به ما أمامه ؛ فكان ذلك عبثاً لم يجد عليه شيئاً ... وإذن فماذا يصنع ولا بد من الاجابة صواباً أم خطأ ؟ أخذ يقرأ الجملة ويجرب على كلماتها علامات الاعراب ، فكان يشعر عند بعضها بارتياح ، ويحسبها أدنى إلى ما يقرؤه فى كتاب المطالعة وغيره من الكتب التى اعتاد أن يعبث بها ... فيثبت الشكل الذى ارتاح اليه ؛ ثم يمضى إلى غيره ، وهكذا ، ثم يعطى الكراسة للمعلم لتصحيحها ، فينتبط حين ترد اليه فيعلم أنه لم يخطئ إلا قليلاً

أكانت المصادفة هى التى تملى على ذلك الصبى المسكين ، أم كان شيئاً آخر فى طبيعته وكيانه هو البذرة الأولى المطمورة فى أعماق النفس للسليقة العربية ، قد ورثها لأنها بعض ما يقوم الجنس الذى ولد بجميع مشخصاته ، ثم أخذت هذه البذرة تستروح نسيم الحياة فى هذا الكلام العربى الذى يقرؤه صاحبها بين حين وحين ، فلا عجب أن يبرز فيها شىء من مظاهر هذه الحياة ، فتحاول تكييف ذوق ذلك الصبى ، بمقدار ما أتيح لها من حياة هينة ضعيفة مضطربة ؟ ؟

أما التفسير بالمصادفة فهروب من المسلك العلمى ، وأما السليقة العربية الموروثة فلا شك فى وجودها ؛ وفى أنها وحدها التى تقوم ألسنتنا ، وتصحح عباراتنا ، على قدر ما تلقى من العناية والرعاية ، وعلى قدر ما نتعهدها به من التربية التى تناسب طبيعتها ، فأين نلتمس هذا النوع من التربية ؟

أنلتمسه فى كتب النحو وقواعد العربية كما يفعل الناس جميعاً ، فيظن الواحد منهم أن من تجرع جرعات من الألفية أو الدروس النحوية كان خليقاً أن تصح سليقته ، ولا يخطئ من بعدُ فى كلمة من الكلام ؟

لو جاز هذا الجاز للرجل الضعيف المتهالك أن يقرأ مجموعة من مجاميع الرياضة البدنية ، أو يستظهرها ، أو يستبطن أسرارها ومواطن تأثيرها ، فاذا هو قد أصبح ، بسحر هذه المجموعة ، قوياً نشيطاً مهزوزاً تتألق عليه الفراهة والعافية ، وإذا هو قد أصبح كذلك الرجل « الفلاح » الذى يغذى مواطن القوة فيه غذاءها الطبيعى من الشمس والهواء والعمل . ولكن أحداً لا يقول هذا ولا يتوهمه ، والأمر لا يعدو هذا القياس فى تربية الغريزة اللغوية

وإنى لأعرف فريقين من الناس بأعيانهم معرفة صحيحة صادقة يمثلان طرفى هذه الحالة التى نتناولها ويثبتان القضية التى نقررها طرداً وعكساً

أما أحد هذين الفريقين فقد صرف عن النحو صرفاً ، حتى لا يكاد يعرف من قواعد النحاة حرفاً ؛ ولكن مزاجه الفنى أقبل به على ينابيع الأدب العربى فأقبل على الكتب الأدبية يقرؤها ويتذوقها ويملأ نفسه بما فيها من جمال ومتعة ، فصفت بذلك سليقته ، وصحت ملكته ، حتى ليحس اللاحنة فى الكلام ، كما يحس الموسيقى النشوز فى الألحان . واستقام لسانه حتى لا يكاد يلحن أو يخطئ

وأما الفريق الآخر فطائفة من شيوخ الازهر الذين أدركنا أعقابهم ، قرأوا من كتب النحو الأجرومية والكافية وما بينهما ، وأحاطوا بقواعد النحاة وما دار حولها من خلاف

وجدل ، وربما أدركوا سر الكثير منها ، ثم كان الواحد منهم مع هذا لا يكاد يصيب فيما يقرأ أو يكتب إلا بعد تكلف شديد ، فما أغنى عنه ما بذل من جهد جهيد وعمر مديد فى قراءة النحو وتفهم مشكلاته واستيضاح غوامضه . فماتت سليقته اللغوية ولما تستروح الحياة ، لأنه لم يمدها بالغذاء الطبيعى الحى الذى يمكن أن يتمثل فيها ، ويبعث فيها الحياة ماضية قوية ، ولكنه ألقمها أحجاراً جامدة إن لم تقض عليها فلن تبعث فيها شيئاً من معانى الحياة الصحيحة

ولقد بقى لنا من عصر الحملة الفرنسية وثيقة من الوثائق التى تؤيد هذا المعنى تأييداً تاماً ، وهى رسالة كتبها بخطه شيخ الاسلام ورئيس الديوان ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وهى حجة قاطعة فى قيمة التعاليم النحوية من ناحية أثرها فى تقويم اللسان واصلاح اللغة على الأسلوب العربى ، فلن يشك أحد فى أن الشيخ الشرقاوى قد تلقى من « النحو » أوفر ما كان يتاح فى ذلك العهد

وهذه ملاحظة ظاهرة جلية لا نكاد نحسب أحداً يجادلنا فيها أو يخالفنا عليها ، وقد لاحظها من قبل العلامة الدقيق ابن خلدون ، فقال فى مقدمته ، بعد أن قرر أن العلم بقوانين الأعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل : « ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل فى كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيهما عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يُجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية »

فليس عجيباً إذن ما روى لنا من أن رجلاً جاء لابن خالويه — وهو من هو ! — فقال له : أريد أن تعلمنى من النحو والعربية ما أقيم به لسانى . فقال له ابن خالويه : أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ، ما تعلمت ما أقيم به لسانى

فالأمر فى اللغة هو أمر سليقة يجب أن تربى ، وملكة يجب أن تكوّن . ولن يكون ذلك بواسطة النحو ، فانه قواعد ميتة ، بل بواسطة البيان والأدب الذى هو مظهر اللغة ومجلى حيويتها . أما النحو الذى أبى على ابن خالويه أن يقوم لسانه ، فلا مطمع لنا فى أن يجدى علينا ما أباه على ذلكم الامام

وكيف كانوا يقومون ألسنتهم عند ما بدأت السلائق تضعف والألسنة تضطرب ؟ كانوا — كما يعرف الناس جميعاً — يذهبون إلى البادية ، ويندمجون فى الحياة العربية ، فيهيئون بذلك لسليقتهم سبيل القوة ، فتصبح من بعد ذلك المتحكمة فى منطقهم ، والمعرفة لألسنتهم ، وليس لدينا مثل هذه الحياة العربية التى كانوا يلجأون اليها ، ويندمجون فيها ؛ ولكن إذا فاتنا ذلك فانا نستطيع أن نعيش بقلوبنا وعقولنا فى حياة عربية اللسان ، فيكون لهذه مالذلك من الأثر الطيب المبارك . أما هذا النحو فقد أعان إفلاسه فيما نطلبه من أجله ، وهو عصمة اللسان من الخطأ فى الكلام ، منذ عهد ابن خالويه إلى أيامنا هذه . ولن نجد امرأ صحيح اللسان قويم المنطق إلا وهو يرجع الفضل فى هذا الى ما أمد به سليقته من الآداب العربية

ويعلل ابن خلدون وجود الملكة العربية فى بعض المهرة فى صناعة الأعراب بدراستهم لكتاب سيبويه ، وطول مخالطتهم له لا من ناحية ما تناوله من تقرير القواعد . بل من ناحيته الأدبية « فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة ، فتجد الماكف عليه ، والمحصل له ، قد حصل على حظ من كلام العرب ، واندرج محفوظه فى أماكنه ، ومفاصل حاجاته ، وتنبه به لشأن الملكة ، فاستوفى تعليمها ، فكان أبلغ فى الافادة

ولسنا نضع بهذا — معاذ الله — من قيمة النحو ، وإنما نريد بهذا أن نضعه فى مكانه الحقيق ، ونلتمس به غايته الطبيعية ، وهو معرفة قوانين اللغة العربية ، والنفوذ إلى أسرار التركيب فيها . وأكبِرْ به من مكان ، وأعظم بها من غاية !

ترى لو كان أمر اللغة كأمر العلوم الأخرى التى تتلقى قوانينها واحدة بعد الأخرى ، ثم لا يشعر صاحبها أنها غيرت فى كيانه الداخلى ، لو كان الأمر كذلك فى اللغة أكنا نشعر بهذا الاستهجان والمض الشديد حين نسمع خطيباً يلحن أو يغير فى الوضع العربى ، ونحس بعباراته الملحونة كأنما أصابت موضع الكرامة أو العزة فنتململ ونتضجر كما نحس حين نسمع رجلاً يتناول ديننا أو وطننا أو قوميتنا بما نكره ؟ وما ذا لو أن رجلاً أخطأ فى تقرير قاعدة أو تطبيق قانون علمى ؟ فهذا الفرق القائم